قانون البلاغة

— ٣ —

اما حصر المعاني بقوانين كلية تستوعب أقسامها ، وتستوفي أحكامها ، فعسير لانه يحتاج فيه الى تقديم صناعات كثيرة ، وعلوم شاقة ، الا ان في فطر الناس السليمة اتباع الصواب وقصده . والنفار من الخطإ والحياد عنه ، فقد يكتفي من سلم فكره ، ولم يضطرب ذهنه ، بما معه من المعرفة التي يوقع(؟) العبارة عنها . الا ان لهذه الصناعة خاصة أغراضاً من المعاني ، يلزم الكلام فيها ، ومقاصد لا يسع الإخلال بها .

فاما نعوتها فمنها صحة التقسيم ، وهي ان يؤتى بالأقسام مستوفاة ، لم يخلّ بشيء منها ، ومتخلصة لم يدخل بعضها في بعض ، كقول من قال : لم تخلُ فيما بدأتني به من مجد أثلته ، او شكر تعجلته ، او أجر ادخرته ، او متجر اتجرته .

ومنها صحة المقابلات[1] : وهو ان يؤتى بمعان يراد التوفيق بينها وبين معان أخر . والمضادة فيؤتى في الموافق بموافقه ، وفي المضاد بمضاده ، كقول القائل : اهل الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الأفن والغش ، وليس من جمع الى الكفاية الامانة ، كمن اضاف الى العجز الخيانة .

فمن تأمل هذه المعاني وجدها في غاية المعادلة ، لانه جعل بازاء الرأي الأفن ، وبازاء النصح الغش ، ومقابل الكفاية العجز ، ومقابل الأمانة الخيانة . فهذا التقابل تعدبل في الموافقة والمضادة .

ومن هذا الجنس قول هند بنت النعمان بن المنذر بن ماء السماء الملك للمغيرة بن

(١) وجد في هامش الأصل ما يأتي : والمَمَلم فيها قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، واما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى » . لما جعل التيسير مشتركاً بين الإعطاء والإتقاء والتصديق ، جعل في مقابلتها التعسير مشتركاً بين المنع والاستغناء والتكذيب فافهم اه .

شعبة بعقب إحسان منه اليها : شكرتك يدٌ نالتها خصاصة بعد نعمة ، وغنيت عن يدٍ نالت ثروة بعد فاقة .

ومنها صحة التفسير وهي ان توضع معانٍ تحتاج الى شرح احوالها ، فاذا شرحت أتي بتلك المعاني من غير عدول عنها ولا زيادة عليها ولا نقصان منها . كقول من قال : وانا اثق من مساءلتك في حال ، بمثل ما اعلمه من مشاركتك في أخرى ، لانك ان عطفت وجدت لدناً ، وان غمزت الفيت شيئاً .

وكقول آخر : واين يُذهب بك ، مع غزير انعامك ، وشديد احكامك ، واليم انتقامك ، ان تكون مشباعاً للضيف ، ومدفاعاً للحيف ، ومِمناعاً من الخوف .

ومن نعوت المعاني التتميم ، وهو ان توجد في المعنى كتابة او خطابة فيوفى بجميع المعاني المتممة لصحته ، المكملة لجودته ، من غير ان يخلّ ببعضها ، ولا أن يغادر شيءٌ منها . كقول القائل : فخلقت به اسباب الجلالة ، غير مستشعر فيها لنخوة ، وترامت به احوال الصرامة ، غير مستعمل فيها لسطوة ، هذا مع زمانة (١) في غير حصر ، ولين جانب من غير تخور . فقد اتى هذا المتكلم بتتميمات المعاني التي جاء بها من غير ان يخلّ بشيء منها .

ومن نعوت المعاني المبالغة ، وذلك ان يذكر معنىً بما لو اقتصر عليه لكان كافياً فيما قُصد له ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكد معانيه ، ويعتمد المبالغة فيه . مثل قول الاعرابي : اللهم ان كان رزقي نائياً فقربه ، او قريباً فيسره ، او ميسراً فعجله ، او قليلاً فكثره ، او كثيراً فثمره . فهذه مبالغات تؤكد المعنى وتزيد فيه .

ومن نعوت المعاني التكافؤ وهو ان يتكلم في امر من الامور ، فيؤتى فيه بمعانٍ متكافئة ، واعني بمتكافئة في هذا الموضع متقاومة اي ان كل اثنين منها متعاند حتى اذا قيل في معنىً ان شيئاً اسود أتي بآخر ، يقال فيه ان شيئاً ابيض الى غير ذلك من وجوه العناد . مثل قول من قال : كدرُ الجماعة ، خير من صفو الفرقة ، ومثل قول القائل : وكان اعتدادي بك اعتداد من لا تنضب عنه نعمة تغمرك ، ولا يمرّ عليه عيشٌ يحلو لك . فقوله بازاء تنضب ، تغمر ، ويمر ، يحلو ، من التكافؤ .

(١) زمت الرجل زمانة وقر .

فاما عيوب المعاني فان من كان حافظاً لما قدمناه في باب نعوت المعاني فسيهون عليه تعرف عيوبها • وجماع ذلك ان تكون المعاني معدولاً بها عن الاغراض المنتحاة ، والمقاصد المتوخاة ، الا ان من تفصيل ذلك الاستحالة والامتناع والتناقض :

فاما المستحيل فهو الشيء الذي لا يوجد ، ولا يمكن مع ذلك ان يتصور في الفكر ، مثل الصاعد والنازل في حال واحدة ، فان هذه الحال لا يمكن ان تكون ولا تتصور في الذهن : واما الامتناع فهو الذي وان كان لا يوجد فيمكن ان يُتخيل ، ومنزلته دون منزلة المستحيل في الشناعة مثل ان تركب اعضاء حيوان ما ، على جثة حيوان آخر ، فان ذلك جائز في التوهم ، ولكنه معدوم في الوجود •

واما التناقض فبان تجمع بين المقابلة من جهة واحدة •

والمعاني تقابل على اربعة اوجه : اما على طريق الاضافة ، مثل الأب للابن ، والضعف للنصف ، والمولى للعبد • واما على طريق التضاد ، مثل الأسود للأبيض ، والحار للقار ، والخيّر للشرير • واما على طريق الملكة [1] والعدم ، مثل البصير للاعمى ، والموسر للفقير ، وذي الوفرة للأصلع •

واما على النفي والاثبات مثل ان يقال : زيد جالس ، زيد ليس بجالس ، فالثلاث المقابلات الاول تكون في المعاني ، والرابعة تكون في اللفظ وحده ، ولكن هذا التقابل الأخير لما كان قد يتقدايضاً ، حتى لعل من يعدم اللفظ ، يشير الى ما في نفسه منه إشارة بغير اللفظ ، كما يشير الأخرس مثلاً بان يحط يده الى أسفل في الايجاب ، او يرفعها الى فوق في النفي ، وماجرى هذا المجرى — أضفنا الكلام فيه الى الكلام في المعاني •

وقولي في جميع هذه المقابلات من جهة واحدة ، انما اردت به هذا هو الشنيع الجاري مجرى العيب • فاما ان يكون مثلاً في باب المضاف انسان ما اباً لزيد ، وابناً لبكر ، ومولى لفلان وعبداً لآخر ، ويكون عدد ما ، نصفاً لعشرين وضعفاً لخمسة ، وكذلك في التضاد مثل ان يكون الفاتر حاراً عند البارد ، وبارداً عند المحرق ، وفي الملكة والعدم مثل ان يكون انسان بصير القلب ، أعمى العين ،

(١) خ القنية •

او معسراً من عرض ، موسراً من آخر ، وفي الاثبات والنفي مثل ان يكون زيد جالس الظهر ، ليس بجالس العصر ، فجميع ذلك جائز .

فاما المنكر المستبشع الذي اومأنا الى انه اذا وجد في معنى كان معيبًا ، فمثل ان يجعل رجل ما ، اباً لزيد وابنًا له ، وعدد ما ضعفًا لخمسة ونصفًا لها ، وشيء ما حاراً عند رجل ، وبارداً عنده بعينه ، وانسان ما ، اعمى القلب بصيره ، ويجعل زيد قائماً في هذا الوقت ، غير قائم فيه نفسه ، فهذا كله فاسد لا يجوز ، لان التقابل جُعل فيه من جهة واحدة ، فيصير حينئذ تناقضًا ، وهو من أفحش عيوب المعاني المعبر عنها بالكلام المنثور ، والكلام المنظوم ايضًا .

ومن عيوب المعاني فساد التقسيم وذلك يكون على ثلاثة أوجه : امابتكرير المعنى ، او بان يؤتى منها ما يكون بعضه داخلاً تحت بعض ، او بان يخل بما يقتضي المتكلم فيه استيفاؤه . فاما التكرير فمثل ما كتب بعضهم الى عامل : ففكرت مرة في عزلك ، وأخرى في صرفك ، وتقليد غيرك . ومثل قول هذا الرجل لهذا العامل : فتارةً تسترق الأموال وتختزلها ، وتارةً تقتطعها وتحتجنها .

واما دخول بعض الأقسام في الآخر ، فمثل ما سأل بعض النوكى فقال : اخبروني عن علقمة بن عبدة جاهلي هو ام من بني تميم . ومثل قول بعض المترسلين في فتح : فمن بين جريح مضرّج بدمائه ، وهارب ما يلتفت الى ورائه . فكلا هذين القسمين يدخل في الآخر ، لان الجريح قد يكون هارباً ، والهارب قد يكون جريحًا .

واما الإخلال ببعض الأقسام فمثل قول القائل : انك لا تخلو في هربك من صارفك ، ان تكون قدمت اليه إساءة خفت منه معها ، او خنت في عملك خيانة ، رهبت بكشفه إياك عنها ، فان كنت اسأت فأول راض سنةً من يسيرها ، وان كنت خنت خيانةً ، فلا بد من مطالبتك بها . فكتب العامل تحت هذا ، هذا التوقيع : قد بقي من الأقسام ما لم تذكر : وهو اني خفت ظلمه إياي بالبعد منك ، وتكثيره عليّ بالباطل عندك ، ووجدت الهرب الى حيث يمكنني فيه دفع ما يتخرصه انفى للظنة عني ، والظلم عمن لا يُؤمن ظلمه اولى بالاحتياط لنفسي .

ومن عيوب المعاني ، فساد المقابلات ومن كان حافظاً لما ذكرنا من صحة المقابلات

في باب نعوت المعاني ، وقف بسهولة على الوجه في فسادها ، وذلك ان يُذكر معنىً يقتضي الحال ذكر ما يوافقه ويعانده ، فيؤتى بما لا يوافق ولا يشاكل ، او بما لا يقاوم ولا يعادل ، فليس المقول فيه من الناس انه خير على الاطلاق معانداً للمقول منهم انه مارق ولا موافق .

ولهذا لا يحسن في البلاغة ، وكلام اهل الحجى — لم يأتني من الناس أسود ولا أسمر — بل الأجمل ان تقول ولا أبيض ، لان الاسمر ليس يعاند الأسود غاية المعاندة ، ولا يوجد منه في غاية المباعدة . وكذلك لو قال قائل : ماصاحبت في هذا البلد خيّراً ولا شريراً ، كان ذلك أذهب في سبيل السّداد ، من قوله خيّراً ولا سارقاً .

ومن عيوب المعاني فساد التفسير ، ومن كان ذاكراً لما قدمناه من نعت هذا الباب ، عرف الوجه في عيبه . ومن المثالات في ذلك قول بعض المترسلين الى عامل من عمال الأطراف : ومن كان لأمير المؤمنين كما انت له من الذب عن ثغوره ، والمسارعة الى ما يهيب به اليه ، من صغير خطب وكبيره ، كان جديراً بنصح امير المؤمنين في أعماله ، والاجتهاد في تثمير أمواله ، فليس التي قدّم من الحال التي عليها هذا العامل في الذّب عن الثغور ، والمسارعة في الخطوب ، مما سبيله ان يُفسّر بالنصح في الأعمال ، وتثمير الأموال ، اذ كان الذي قدّمه لا يلزم عنه مافسر به .

ومن نعوت البلاغة : ان البلاغة ثلاثة مذاهب يقصد في استعمالها : المساواة والإشارة والتذييل . فالمساواة ان يكون اللفظ كالقالب للمعنى لا يفضل عليه ، ولا ينقص عنه . والإشارة ان يكون اللفظ مشاراً به الى المعنى كاللمحة الدالة . والتذييل إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه ، حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتوكد عند من فهمه ، ولكل مذهب من هذه المذاهب موطن يليق به ، ووقت لا يصلح فيه غيره .

فاما المساواة فأولى المواطن بها اذا كانت المخاطبة للنظراء ، ومن ليست له مآرب تشغله ، ولا شؤون تصرفه ، عن استيفاء لمعنى الى آخره .

واما الإشارة فأولى الأوقات بها الوقت الذي يخاطب او يكاتب فيه ذوالمراتب العالية ، والشؤون الكثيرة ، والهمم المنقسمة ، لان من كان في هذه الطبقة احتاج

ان لا يشغل خاطره بمعنى واحد بعينه ، ولا ينفد زمانه اهتمام بغيره ، وكان الوحي[1] عنده أنفق من الإطالة ، والإشارة اليه اولى من تطويل المقالة .

واما التذييل فانما سبيله ان يستعمل في المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، وقد قال بشر بن المعتمر : ينبغي للمتكلم ان يعرف أقدار المعاني ، فيوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، ويجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكل حال مقاماً ، حتى يقسم اقدار المعاني ، على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين ، على تلك الحالات .

واذ قد ذكرنا من أحوال هذه المذاهب الثلاثة ما أنبأ عن صوره الأمر ، فانا نأتي في كل مذهب منها بمثال مما تقدم استعمال البلغاء إياه في جنسه ، ليزيد ذلك من عمله شرحاً لما وعاه من معانيه ، و يبني من لم يفهمه عن حقيقة الحال فيه ، وابدأ من ذلك بمذهب الإشارة .

قال احمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعّد فيه طرفه ويُصوّب ، فلما مرّت على ذلك مدة من زمانه ، التفت اليّ وقال : يا احمد أراك مفكراً فيما تراه مني ، قلت : نعم فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ، زعم ان البلاغة انما هي التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على كثير المعنى ، وما كنت أتوهم ان احداً على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب ، ورمى به اليّ وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا . ففككته فاذا فيه :

« كتابي الى امير المؤمنين ومن قِبلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الإنقياد والطاعة ، على أحسن ماتكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه امورهم » . فلما قرأته قال : ان استحساني إياه ، بعثني ان امرت للجند قِبَله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وانا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَن حلّ محله في صناعته .

---

(١) الوحي المكتوب والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه كيف كان ثم غلب على وحي الانبياء . وقيل الوحي إعلام في خفاء ، فالمراد هنا اعلام في ايجاز كلام سريع التلقين .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة ان يكتب لرجل به عناية الى بعض العمال في قضاء حقه وان يختصر كتابه ما امكنه ، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد ، لا زيادة عليه ، فكتب عمرو : كتابي كتاب واثق بمن كتبت اليه ، معتن بمن كتبت له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكان جعفر بن يحيى[1] يقول لكتابه : ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا . وكتب ابراهيم بن ابي يحيى الى بعض الخلفاء يعزّيه ، ويجري في المذهب الذي نحن بسبيله وهي : اما بعد فان أحق من عرف حق الله عليه ، فيما اخذ منه ، من عظّم حق الله فيما بقّاه له ، واعلم ان الماضي قبلك ، هو الباقي لك ، وان الباقي بعدك ، هو المأجور فيك ، وان أجر الصابرين فيما يصابون به ، أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه .

ودخل بعض البلغاء على بعض الامراء فقال : السلام عليك ايها الأمير ، سلاماً يتصل أمثاله بسمعك ابداً ما بقيت ، إما من وليك ، بطوع قلبه ، وصادق ودّه ، وإما من عدوك برغم أنفه ، وذل خده .

ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى الإرداف : وهو ان يراد للدلالة على معنىً ، فلا يؤتى باللفظ الخاص ، بالدلالة على المعنى نفسه ، بل بلفظ هو ردفه ، وتابع له ضرورة ، ليكون في ذكر التابع ، دلالة على المتبوع ، وهذا المذهب يوجد كثيراً في الاشعار ، وبلاغة الأعراب ، مثل ما قالت أعرابية تصف رجلاً : ولقد كان منهم عمار ، وما عمار ، لم تخمد له قط نار ، طلاّب باوتار . وانما أرادت بقولها لم تخمد له قط نار : كثرة إطعامه الطعام ، فلم تأت باللفظ الدال على هذا المعنى نفسه ، بل ذكرت إيقاده النيران ، لان ذلك تابع لاتخاذ الطعام . ومثل قول أخرى وصفت زوجها فقالت : اخذني من اهل غُنيمة بشق فجعلني في اهل صهيل وأطيط ودائس ومنق . فأرادت انه اخذها من اهلها وهم فقراء لهم غنم قليلة ، فجعلها في قومه ، وهم أغنياء لهم خيل تصهل وإبل تئط اي ترغو ومزدرع يُغربل . فأكثر هذه المعاني التي

(١) وفي الهامش : وهو فريع دهره ونسيج وحده في معرفة البلاغة اه .

أنت بها ، انما هي أرداف معان أشارت الى الدلالة عليها . وكذلك قول سائر الاعرابيات اللاتي هن في حديث أم زرع وقد ذكرنا صدراً في كتاب نقد الشعر .

ومما جاء في ذلك من بلاغات المحدثين : ما كتب به بعض الكتاب الى صديق له فقال : وكيف لا أتمسك بعهدك ، وأتشبث بعلائق ودك ، وانت ممن لا تقلى صحبته ، ولا تخشى غيبته ، ولا يكد الصديق عتبه ومعاتبته ، فهذه الألفاظ مجراة مجرى الإرداف . فأراد بقوله لا تقلى صحبته اي لا يسيء الى مصاحبه ، واذا لم يسيء لم يُقْلَ ولا تخشي غيبته ، انه ليس بشرير ، ولا وقاعة في الناس ، ولا يكد ذلك انه لا يتجنّى على صديقه فيعاتبه فيما لا اصل له ، ولا يسيء عشرته فيحوجه الى معاتبته .

ومما جاء من ذلك قول من قال حتى اذا ثار النقع ، والتف الجمع بالجمع ، واحمرّت الأحداق ، وقامت الحرب على ساق . وكل هذه الاشياء تدل على معركة الحرب .

ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى التمثيل وهو ان يراد الاشارة الى معنى فتوضع الفاظ تدل على معنى آخر ، وذلك المعنى وتلك الالفاظ ، مثال للمعنى الذي قصدت الاشارة اليه ، والعبارة عنه . واكثر الاستعمال لهذا المذهب انما هو في البلاغة الشعرية . وقد استعملها الكتاب في رسائلهم ، والخطباء في خطبهم ، فيكون ذلك مما يحسن موقعه ، ويبين في البلاغة موضعه .

ومن الأمثلة في ذلك كتاب يزيد بن الوليد الى مروان بن محمد ، وقد بلغه «انه» يتلكؤ في بيعته . اما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيتهما شئت والسلام . فلو كتب : اذا أتاك كتابي هذا فبايع لم يكن للفظه من العمل في المعنى ، ما للتمثيل الذي اتي به .

« للبحث صلة »

